

الأم الثكلى

للكاتب الأمريكى واشنطن تون إرفنج

(تعريب)

الأستاذ حسن شريف الرشيدى

ليس هذا العنوان بالترجمة الدقيقة لعنوان القصة ، ولكنه يعطينا صورة واضحة للقصة كلها التى تدور حول شكل الأم وحنانها الأبدي . أما الترجمة الدقيقة للعنوان فهى « الأم زملة » . وفى هذه القطعة يعطينا الكاتب صورة واضحة لشكل الأم الدقيق بعد أن تفجع فى ولدها وعائلتها الوحيد فى أيامها الأخيرة . وقد أجاد الكاتب حقاً وليس لنا إلا محاولة إظهار إجادته هذه . يقول الكاتب : كل من اعتاد ملاحظة ما يجرى حوله من دقائق الأمور لابد وأن يكون قد لفت نظره هدوء المناظر الريفية الإنجليزية فى يوم الأحد ، إذ يهدأ صوت المصانع ولا نسمع مطرقة الحداد ، أو صفير الحراث أو قرقرة عربات النقل ، وكذلك تسكن كل أصوات الأعمال الريفية الأخرى ، بل يلاحظ أيضاً قلّة نباح كلاب المزارع لعدم انزعاجها بالمسافرين الذين همرون عليها . فى مثل هذه الأوقات كثيراً ما يخيل لى أن الرياح نفسها تهدأ فى هبوبها ، وأن المناظر الطبيعية المشرقة بألوانها الخضراء الزاهية الذائبة فى الضباب الأزرق ، تشارك نفسها فى التمتع بهذا الهدوء المقدس .

وكأن العناية الإلهية فرصت أن يكون يوم الصلاة يوم راحة . ولهذا الراحة المقدسة التى تسلط على الطبيعة تأثيرها الخلقى ، فتهدأ كل عاطفة جامحة ، كما نشعر بأن نفوسنا تمتلئ بالقدسية الطبيعية . أما عن نفسى فكثيراً ما يعتزنى إحساس فى الكنيسة الريفية وسط هدوء الطبيعة الجميل ، الذى قلما أجده فى مكان آخر . وإذا لم أكن بطبيعتى كثير التدين ، فأنى أظن أننى فى يوم الأحد أكون أكثر تديناً منى فى أى يوم آخر من أيام الأسبوع . وتذكرنى طرقات هذه الكنيسة القائمة وتمايلها البالية وحوائطها الخشبية الداكنة بظلام السنين الماضية ، وتجعل هذا المكان ملائماً للذكريات المقدسة . ولكن لقيام هذه الكنيسة فى جوار عامر بالبنى والثروة ، فقد نذ إليها شئ من بهرج الحضارة وقل من قداساتها ، وكنت أشعر مرات عديدة أثناء الصلاة فيها ، بتشتت فكرى نحو أمور الدنيا ، وذلك من مظاهر الثراء والجمود الروحى للمخلوقات التى حولى . والكائن الوحيد فى كل المصلاة الذى ظهر أنه يشعر

تماماً بالتقوى والتواضع الدينى هو امرأة عجوز تحملها الكبر حتى لتكاد تسقط تحت ثقل السنين والادواء ، وكان يظهر عليها آثار الفقر المدقع بينما تلمح فى مظهرها بقايا عز محتشم . كان ملابسها ضيعاً جداً إلا أنه غاية فى النظافة ، كما كانت تلقى ممن حولها شيئاً من الاحترام لأنها لم تأخذ مقعدها بين فقراء القرية بل جلست وحيدة على درجات الهيكل . ويظهر أنها عاشت بعد أن فقدت كل الحب والصدقة والאלفة ، ولم يبق لها إلا آمالها فى السماء . وعندما رأيتها تقوم من مقعدها ، ويكاد الضعف يقعدها ثانياً ، ثم تحنى هيكل جسمها المحطم لتقرأ صلواتها فى كتابها المقدس الذى كانت تقبض عليه بيد تهتز من الضعف ، وتنظر اليه بعين كليله لم تكن تسمح لها بالقراءة ، ولكنها تقرأ عن ظهر قلب ، شعرت ووثقت بأن هذا الصوت الضعيف الذى ينبعث من هذه المرأة المسكينة يصعد الى السماء مباشرة أسرع بكثير من ترانيم الواعظ أو صوت الأرغن أو أناشيد المرتلين .

شغفت كثيراً بالتجوال فى الكنائس الريفية ، وكانت هذه الكنيسة دقمة فى موضع جميل ، حتى إنى كثيراً ما شعرت بدافع يدفعنى لزيارتها . كانت ترتكز على تل مرتفع قليلاً ، ينعطف حوله مجرى من الماء وينحنى فى التواء جميل ثم يسير بعد ذلك فى خط مستقيم ممتد وسط مراعى ناضرة خضراء ، ويحيط بالكنيسة شجر السرو المرتفع جداً ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه غرس وقت إقامة بناء الكنيسة ، ويظهر وسط هذا الشجر برجها الملئوى يحلق حوله كثير من الطيور مثل الغربان وغيرها . جلست مرة هناك فى صباح يوم مشرق فلاحظت رجلين من خفار القبور يحفران قبراً ، وقد اختارا أحد الأركان المهمة البعيدة من فناء الكنيسة ، حيث يظهر من القبور العديدة التى فى هذا الركن والى لا أسماء عليها ، أن الفقراء والذين لا أهل لهم يدفنون هناك بدون عناية . ثم علمت أن هذا القبر الجديد هو للابن الوحيد لأرملة فقيرة . وبينما كنت أفكر فى الفروق بين طبقات الإنسان التى تلازمه حتى تلحقه فى التراب ، دق ناقوس الكنيسة معلناً قدوم مشهد الجناز . وكان مشهداً يدل على الفقر ، ليس فيه شئ من مظاهر الفخر والمجاهد . وكان التعش مكوناً من أبسط المواد الخشبية وليس له غطاء يحمله بعض القرويين . ويمشى أمامه قندلفت الكنيسة بهيئة جامدة ليس فيها شئ من مظاهر الرحمة ولم يكن فى المشهد هؤلاء الذين تعودنا أن نراهم يلبسون ثوب الحزن رياء ومداهنة ويكون مجاملة ، بل كان هناك نائح حقيقى يسير متهدجاً خلف الجثة ، وما هذا الباكي إلا الأم العجوز لابن الراحل ، وهى المرأة الفقيرة المسنة التى رأيتها قبل ذلك تجلس على درجات الهيكل . وكان يعينها على سيرها صديقة لها ، فقيرة مثلها ، تحاول جهدها أن تخفف من حزنها بكلمات

العزاء . وشيع النعش قليل من جيرانها الفقراء أيضاً ، يجرى وراءهم بعض أطفال القرية يصيحون فرحين غير مبالين ، وأحياناً يحملون ، تدفعهم غريزة حب الاستطلاع ، فى الأم الثكلى . وعندما اقترب المشهد من القبر ، خرج القس من باب الكنيسة مرتدياً ثوباً أبيض ويده الكتاب المقدس ، يتبعه مساعده ، ثم تليت الصلاة كانها عمل إحسان . كان الميت فقيراً وخلقه معدماً ، ولذا أسرع القس فى تلاوة الصلاة ، ببرود وبدون أى شعور ، ولم يترك أثناء ذلك باب الكنيسة إلا خطوات قليلة كما لم يسمع صوته عند القبر إلا لماماً . ولم أكن أنتظر أن أرى صلاة الجنازة ، هذا العمل النبيل المؤثر ، يتقلب إلى كلمات باردة لا قداسة فيها مطلقاً .

اقتربت نحو القبر ، وكان النعش موضوعاً على الأرض ، وعليه نقش اسم وعمر الميت « جورج سومرز ، وعمره ٢٦ سنة » . ثم أعينت الأم الفقيرة على الركوع عند رأس النعش ، فضمت يديها النحيلتين بعضهما إلى بعض كأنها تصلى ، ولكنى كنت أرى من هيكل جسمها المهتمد المهتر ، وتخريك شفيتها المرتجفتين ، أنها تنظر إلى بقايا ولدها الأخيرة بلهفة قلب الأم ، نظرة الوداع الأخيرة .

وعملت التجهيزات الأخيرة لوضع النعش فى القبر . فكانت هناك تلك الحركة والضوضاء التى تندفع بخشونة وترعج إحساسات الحزن والمحبة . وأعطيت الأوامر بالدفن بلهجة العمل الجامدة ، ولا شك أن أشد ما يؤلم سمعنا من الأصوات هو ضربات القفوس فى الرمل والحصى حفر قبر عزيز لدينا . وكأن الحركة والضوضاء أيقظتنا المرأة من تخيلاتنا الحزنة ، فرفعت عينيها الميضتين من الحزن ونظرت حولها بوحشة خائفة . وعندما اقترب الرجال يحملون الجبال لادلاء النعش فى القبر فركت يديها بعضهما فى بعض ، واندفعت فى تيار من البكاء المؤلم فأخذتها المرأة الرفيقة التى تعاونها من ذراعها وحاولت أن ترفعها من الأرض وأن تهمس فى أذنها بعض كلمات العزاء ، فهزت الأم رأسها فقط وضمت يديها بعضهما إلى بعض كأنها على ثقة أن كلمات العزاء قليلة الأسعاف لديها . وعندما أدليت الجثة فى القبر ألما صوت الجبال ، ولكن عندما حدث أن اهتز النعش أثناء نزوله من عقبة ، قابلته فى طريقه ، انفجر كل حنان الأم واندفعت باكياً ، كأن ضرراً وقع لابنها ، وهو الذى بعد بضعاً شاسعاً عن كل آلام الحياة . لم أستطع أن أرى أكثر من ذلك — فطغى قلبى إلى حلقى وامتلاأت عيناى بالدموع ، وشعرت أنى أقوم بعمل وحشى بوقوفى هكذا ، ورؤيتى لهذا المنظر المغمم بالحزن الوالدى . فانسحبت إلى ناحية أخرى من فناء الكنيسة حيث لبثت حتى انتهى وتفرق مشهد الجنازة — وعند ما رأيت الأم الواهة تتحرك ببطء من ناحية القبر ، مخلقة وراءها بقايا أعز مخلوق لديها

على الارض .. لترجع إلى الوحدة والفاقة شعرت بوخزات من الألم النفسى تملأ قلبي من أجل هذه المسكينة . ففكرت في ماذا تكون أحزان الاغنياء المترفين ؟ عندهم من الاصدقاء من يواسونهم ، وعندهم من المسرات مايلهمهم ، ودنيا عريضة تبدد أحزانهم . وماذا تكون آلام الشباب ؟ فما أسرع ما تطفو أرواحهم اللدنة من تحت ضغط الكارثة . وما أسرع ما تلهو عواطفهم المرنة بأمور جديدة . ولكن أحزان الفقراء الذين ليس لهم في دنياهم الخارجية ما يلطف من حرارة حزنهم — وأحزان المسنين الذين لا تعد الحياة لديهم إلا يوم شتاء مطير . ولا يأملون في سرور مقبل — وأحزان الارملة ، عجوز ووحيدة ومعوزة ، تنوح على ولدها الوحيد الذي كانت تعدّه عزاءها الاخير في أيام حياتها الباقية — هذه هي الاحزان والآلام الخفية التي تجعلنا نشعر بأن العزاء فيها عديم الجدوى .

لم أترك فناء الكنيسة إلا بعد مدة ما . وفي طريقى إلى المتزل قابلت المرأة التي كانت تعاون الأم الثكلى . وكانت لا تزال قافلة من مرافقة الأم إلى مسكنها الوحيد ، فعلمت منها بعض تفاصيل تتصل بالمشهد المحزن الذى شاهدته .

أقام والد المتوفى في القرية منذ طفولتهما . وكانا يسكنان كوخاً من أحسن أكوخ القرية ، ويعيشان على الاعمال الرينية ، وكذلك كانا يملكان حديقة صغيرة يجنيان من ثمارها ما يعيتهما على الحياة السعيدة الشريفة . ثم رزقا بابهما الوحيد ، ففما وترعرع ليكون عوناً لهما وفخراً عندما يقعد بهما السن والضعف عن العمل . قالت المرأة التي تقص على هذه القصة : « آه ياسيدى ، كم كان شاباً جميلاً ذا خلق جميل وعطف على كل الذين حوله ، ولم كان مطيعاً وباراً بوالديه ! ولم كان يبعث السرور في النفس عند رؤيته في يوم الاحد يرتدى خير ما عنده ، طويل القامة مستقيماً . ظاهرة عليه آثار البشر ، يسير تعتمد أمه العجوز على ذراعه نحو الكنيسة . وكانت أمه دائماً شغوفة بالاعتاد على دراع جورج أكثر من زوجها الطيب . وكان يحق للمسكينة أن تفخر به ، إذ لم يكن يوجد في القرية من الشباب ما يداينيه في جمال الخلق والخلق .

وفي إحدى السنين أصاب القرية قحط وفاقة ، فاضطر الابن لسوء حظه أن يلتحق بالخدمة في إحدى السفن التي كانت تروح وتجيء في النهر المجاور . ولم يلبث طويلاً في عمله حتى اختطفته عصابة من الذين يختطفون البحارة لاستعبادهم في العمل في السفن بدون أجر ، وأبحرت به . وعلم أبواه بخبر اختطافه . ولكن لم يعرفا أكثر من ذلك شيئاً ، وبذلك خسرا العائلة الهام لها . فأخذ الأب المسكين يضعف شيئاً فشيئاً ، حزناً وبأساً على ولده حتى واروه أخيراً القبر . وتركت الارملة وحيدة مهتمة . ولم تكن تستطيع أن تعول نفسها ، ففجتها الكنيسة

إعانة طفيقة تستعين بها على العيش . أما أهالي القرية فقد غمروها بشعور العطف والرحمة كما كانت تلقى منهم شيئاً من الاحترام لشخصها المسن . ولم يفكر أحد من الأهالي في أن يعتصبها أو يشاركها كوخها الذي قضت فيه أيام سعادتها الأولى . فأقامت فيه وحيدة لأمعين لها . أما حاجياتها الغذائية فكانت تستمدّها من حديقته الصغيرة التي كان الجيران يزرعونها لها بين حين وآخر . وحدث قبل اليوم الذي قصت على فيه تلك القصة بأيام قلائل أنه بينما كانت تجمع بعض الخضروات لغذائها سمعت باب الكوخ الذي يواجه الحديقة يفتح فجأة ، ويدخل منه شخص غريب ينظر باهتمام وبعين زائفة حوله . وكان يلبس ملابس رجل البحر ، غاية في النجاسة وشحوب الوجه ، تظهر عليه هيئة الذي أفقده المرض والجهد كل قوته . وعندما وقع نظره عليها أسرع نحوها بخطوات ضميقة مضطربة حتى ركع أمامها وبكى بكاء الطفل ، فخدجته المرأة المسكينة بنظرة طويلة كأنها لا تفقه شيئاً . فصاح « آه يا أمي العزيزة ! ألا تعرفين ولدك ؟ ولدك المسكين جورج الذي حطمته الجروح والأمراض وأهلكه الأيسر ، وقد جر جسمه المهتمد ليئال راحته بين مناظر طفولته »

ولا أحاول هنا أن أفصل دقائق هذه المقابلة حيث امتزج فيها كل الامتزاج الحزن بالفرح : ألا يزال هو حياً ! وقد رجع إلى منزل ! وسيعيش أيضاً ويكون سلوى وعائل لها في كبرها ! ولكن القدر كان قد ضرب ضربته ، ولم يكن يحتاج هذا المسكين إلا لكوخ أمه الحقير حتى يتم التدرج عمله ، وهناك ارتقى على فراش أمه الأرملة حيث قضت المسكينة قبل ذلك كثيراً من ليالي الأرق ، وكان هذا فراشه الأخير الذي لم يقيم منه بعد ذلك .

وعندما سمع القرويون أن « جورج سومرز » قد آتب إلى موطنه تجمعوا لرؤيته ، وبذلوا كل ما تسمح لهم به مواردهم الضئيلة لمساعدته وعونه ، وكان هو من الضعف بحيث لم يستطع الكلام ، ولكن عينيه كانت ترسل نظرات تدل على الشكر والعرفان بالجميل ، ولازمته أمه دائماً ، وكان هو من جهة لا يرغب في المساعدة من أي إنسان غيرها .

يوجد شيء من المرض يكسر من حدة الزهو في الرجل ، ويلين من طموح القلب ويرده ثانياً إلى إحساسات الطفولة . من ذلك ، الرجل الذي أضناه المرض والحزن في كبره . من ذلك الذي تقلب على فراش من الأسمى والأعياء يقاسى الوحدة والاهمال في بلاد غريبة عنه ولم يفكر في تلك الأم التي احتضنته وأحاضته برعايتها وحنانها في طفولته . . . حقاً ، يوجد حنان أبدي في حب الأم لولدها يسمو على كل ميول القلب الأخرى . وقامتا تضعف عاطفة الخنو هذه بالاثرة ، أو تقتل بأي خطر ، أو تقل بضالة القيمة ، أو تزول بشكران الجليل . بل إنها تضحي بكل راحتها في سبيل منفعتها ، وتستغنى عن كل مسراتها في سبيل إسعاده ، وينالها

القصر عند سعود طالعه ورخائه ، وإذا أقل نجمه يكون أعز وأحب لديها مما سبق ، وإذا أحاط العار والخزي باسمه فأنها تحبه وترعاه غير آبهة لعاره ، وإذا رماه كل العالم بنظرات الازدراء تكون هي عالمه المنعم بالعطف والحنو .

وقد قاسى «جورج سومرز» المسكين هول المرض مع الوحدة والسجن وسوء العناية ، ولذلك لم يكن يطيق أن تبعد أمه عن نظره ، فإذا تحركت بعيداً عنه تبعها عينه دائماً . وكانت تجلس ساعات متتالية بجانب فراشه تنظر اليه وهو نائم . وربما فزع أحياناً من حلم مخيف رآه في نومه فينظر حوله بلهفة ، حتى إذا رآها تنحني عليه يأخذ بيدها ويضعها على صدره ثم يستغرق في نومه هادئاً مستريحاً كأنه طفل . وعلى هذه الحال قضى المسكين نحيبه .

كان دافعى الوحيد عند سماع هذه القصة المحزنة أن أزور كوخ الأرملة وأهبطها شيئاً من المال والعزاء . وعند ما سألت عنها وجدت أن شعور القرويين الطيب دفعهم لعمل كل ما تسمح به الحال . ولما كان الفقراء يعرفون كيف يواسون بعضهم البعض فى الاحزان ، فأنى لم أجروا على أن أتفضل عليهم .

وفى يوم الأحد التالى ، عندما كنت فى كنيسة القرية ، دهشت إذ رأيت المرأة المسكينة تسير متبالكة وتأخذ جلستها المعتادة على درجات الهيكل .

وقد حاولت جهدها أن ترتدى شيئاً يدل على الحزن لفقد ولدها ، وليس من شيء يؤثر فى النفس أكثر من هذا الجهاد بين محبتها لابنها وبين فقرها المدقع — فكانت تلف حول عنقها شريطاً أسود ، وتحمل منديلاً أسود ، وأشياء أخرى تافهة تحاول بها أن تظهر مبلغ حزنها الدفين . وعندما وقع نظرى على التماثيل الضخمة والنقوش الثمينة المصنوعة من الرخام التى تظهر بحلال وروعة الحزن على الاشراف الراحلين ، والتفت الى هذه الارملة المسكينة التى تحطم قلبها ، وأحنى ظهرها الكبير والحزن ، تركع على هيكل ربها وتتم بصلوات التقوى والورع شعرت بأن هذه الدمية الحية ، هى خير مثل للحزن الحقيقى ، وأبين له من كل ما ذكر .

قصصت قصتها هذه على بعض الاغنياء الذين كانوا يصلون فى الكنيسة ، فتأثروا منها وبذلوا كثيراً من وسعهم ليعاونوا الام ويخففوا من أحزانها . فكان ذلك بمثابة تسهيل طريقها الى القبر . وبعد أسبوع أو أسبوعين ، فى يوم أحد ، لم تكن ترى فى مجلسها المعتاد فى الكنيسة . وقبل أن أرحل من هذه الناحية علمت بشعور الاطمئنان أنها قضت نحبها ، وأنها رحلت لتلاقى الذين تحبهم فى ذلك العالم الذى لا يعرف فيه الحزن مطلقاً ولا يفترق فيه الأصدقاء والمحبون أبداً .